العالم الآخر في المتخيّل الكوني



لطيفة كرعاوي باحثة تونسية

مؤمنهان بالاحدود Mominoun Without Zorders للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

العالم الآخر في المتخيّل الكوني(١)

1- يمثل هذا العمل الفصل الثاني من كتاب "الفردوس والجحيم في المتخيّل الإسلامي"، تأليف: لطيفة كر عاوي. منشور ات مؤسّسة "مؤمنون بلا حدود" للدر اسات والأبحاث، والمركز الثقافي العربي بالدار البيضاء، الطبعة الأولى 2014



الملخص:

درست لطيفة كرعاوي في هذا الفصل العالم الآخر في المتخيّل الكوني. وقد بنت عملها على تقصّي تجليّات العالم الآخر في نماذج من الأساطير القديمة (الإغريقيّة والبابليّة والمصريّة)، وذلك استنادًا إلى اعتقاد مفاده إيمان الإنسان الديني بوجود عالم أخروي يمثّل فيه الموت لحظة تدشينيّة لدخول ذاك العالم، وهو ما يعطي لثنائيّة الثواب والعقاب معنى في حياة الإنسان الديني. وبناءً على ذلك، تكوّنت، على التدريج، تصوّرات شعوب تصوّرات شعوب تصوّرات شعوب المؤلّفة في مسألة العالم الآخر في تصوّرات شعوب سيبيريا وآسيا الوسطى أوّلاً (رجل الشامان هو الذي يقود الأموات إلى مثواهم الأخير، وهو الذي يطلب الرحمة للمقيمين في الحجيم)، والشعوب الهندو إيرانيّة ثائيًا (مرور الروح بأربعة مراحل حتّى تحقّق عروجها إلى عرش "أهورا مازدا")، والشعوب البوذيّة ثالثًا استنادًا إلى نصوص "الماهايانا" التي احتفت بجغرافيا الجحيم والفردوس على حدّ سواء. وقد مثّلت النماذج السابقة مدخلاً جيّدًا في نظر المؤلّفة للنظر في المكلام على العالم الآخر مثلما أسسه المتخيّل الديني في الأديان التوحيديّة الثلاثة. ومن البديهي أن يُخصّص حيّر واسع فردوس آدم وحوّاء. وبيّنت المؤلّفة أنّ التفكير في الفردوس مقترن بحنين الإنسان الديني إلى زمن البدايات، وهو زمن مقدّس، زمن الفردوس، وهو أيضًا "أجمل ما ابتدعته مخيّلة الإنسان تعويضًا عن تلك الرغبة وهو الدونة إلى الغضاء الجنيني.



«Là-bas où brille la lumière perpétuelle, en ce même monde où le soleil a eu sa place (ô Soma)! clarifié, dans cet inépuisable séjour d'immortalité, installe-moi! Là-bas où est Yama, fils de Vivasvat, là-bas où se trouve l'enclos du ciel, là-bas où sont les eaux éternellement jeunes, fais de moi en ce lieu-là un immortel (ô Soma)! Là-bas où chacun s'active suivant ses désirs, dans le triple firmament, dans le triple ciel du ciel, là-bas où sont les mondes de lumière, fais de moi en ce lieu-là un immortel (ô Soma)!»¹

مقدمة

إنّ محاولة فهم صور العالم الأخروي وتمثلها على النحو الذي صاغه المتخيل الكوني، مرتهنان بتمثل الموت، هذا الزائر المرعب هو أكثر الحالات التي تشعر المرء بالعجز والخوف لأنّه يهدد بالاندثار والعدم. ولعلّنا لا نبالغ إذا قلنا إنّ العالم الآخر حاضر في مختلف الأشكال الثقافية الإنسانية أسطورة وديناً وفلسفة وفنّاً تشكيليّاً وسينما، كل هذه الأشكال وغيرها تساعدنا على أن نفهم كيف تمثلت شعوب كثيرة عالمها الأخروي.

فكيف تلونت صور الحياة الأخروية من ثقافة إلى أخرى؟

1. العالم الآخر في بعض الميثولوجيات

تجدر الإشارة أولاً إلى أنّ الاعتقاد بوجود عالم أخروي رهين الإنسان الديني (L'hommereligieux) تحديدًا²، حيث مرّ الوعي الديني بمراحل مختلفة. وينسحب الأمر كذلك على فكرة الثواب والعقاب، فمن الصعب التسليم بوجود تصور للفردوس والجحيم والإنسان لا يزال بعد في بداياته، يتأمل ويندهش ويتساءل ويبحث؛ ثمة تصورات أولى تسبق تشكّل ديانة منظمة حيث يوجد معبد وعباد وطقوس وتصورات أخروية صاغها متخيل جمعي.

¹ هذه ترتيلة مشهورة يتوجه بها الهندي الفيدي (نسبة إلى الغيدا (Véda) وهو أحد الكتب الهندية المقدسة) إلى سوما (Soma)، وهي تعبّر لنا عن رغبته في أنْ يكون له موضع قريب من الألهة الخالدة في عالم الأنوار بعد الموت، انظر:

EncyclopaediaUniversalis, version 13, «Enfers et paradis» par Mircea Eliade et Olivier Clément, CD ROM, 2007.

² لقد عبّر الإنسان الديني منذ أقدم العصور عن العالم الآخر بأساليب فنية مختلفة على غرار الرسوم الجدارية في الكهوف والتشكيلات اليدوية والتماثيل وأشكال الدفن العديدة والأساطير. وهذا لا يعني أنّ الإنسان أوجد تلك الأشكال عن وعي استطيقي جمالي كما نفهم الفن اليوم، بل إنّ سعيه لفهم العالم الملغز الذي يحيط به والتعبير عن تأملاته هو الذي ألهمه ذلك وهو ينسج بدايات تشكل الحس الديني.



يعتبر الموت في ميثولوجيات عديدة مرحلة مهمة، تمر الأرواح عقبها إلى عالم الظلمات وهو العالم الأسفل، وتبقى هناك في جو مظلم وزمن ساكن. ويحكم هذا العالم أسياد متعددون بتعدد الأساطير المعبرة عن ذلك، وسنقف على بعض النماذج:

تقدم الميثولوجيا الإغريقية وهديس (Hadès) سيداً للعالم الأسفل، حيث تبرزه بمعية كلبه (Cerbère) ذي الخمسين رأساً وله هيئة مرعبة وهو يحرس بوابة العالم الأسفل، وهناك يعيش الأموات في حزن أبدي. وتصوره الأساطير أحياناً شبيهاً بـ أريشكيجال (Ereshkigal) شدةً وبطشاً. وقد روي أنّ هاديس اختطف بيرسفوني (Perséphone) ابنة الإلهة ديمتر (Déméter) وجعلها له زوجة وملكة على العالم الأسفل. وقد تأخذ بيرسفوني موقع هاديس في أساطير أخرى.

أما في الميثولوجيا البابلية⁵، فنقف على أريشكيجال سيدة جحيم مرعب حيث توجد أنواع عديدة من العذاب والتنكيل. يقع قصرها وسط مملكة الأموات، أي في الجحيم، وتتجلى في صورة ساحرة لها أجنحة متدلية وهي إلهة قاسية محاطة بالأرواح والشياطين ويوجد في جحيمها ربّان (Nocher) له أربعة رؤوس وخازن جحيمها هو (Petû). أما (Namtar) فهو ساعدها الأيمن إذ يصدر أوامر صارمة وشديدة. ولـ أريشكيجال شياطين ينشرون الأمراض والطاعون في جميع أنحاء العالم كي تملأ جحيمها أمواتاً.

وغير بعيد عن هذه الصورة المخيفة تقدم ميثولوجيا مصر القديمة الإله أبوفيس (Apophis) في صورة ثعبان عملاق أو في صورة تنين جحيم، ولهذا الإله جيش من الأرواح الشريرة تعذب الهالكين أبداً⁶. وقد نقلت الألواح المسمارية (Cunéiformes) لمدينة أوغاريت (Ougarit) تصورات تتعلق بالإله موت (Môt) وهو أيضاً سيد العالم السفلي، وترمز صورته إلى الجفاف والجدب والموت، وهذه الصورة تقابلها صورة الإله بعل (Baal)⁸.

www.mominoun.com 5

³ Bernhard Lang, «Les dieux du royaume des morts, La mort et l'au-delà», in Encyclopédie des religions, 2ème édition, Bayard, 1997, Vol. 2, pp. 1883-1886.

⁴ تروي إحدى الأساطير أنّ إله العالم الأسفل **كو**ر اختطف أ**ريشكيجال** وجعلها له زوجة وملكة عالم الموتى. للتوسع انظر فراس السواح، **لغز عشتار** ا**لالوهة المونثة وأصل الدين والأسطورة،** ط 5، دار علاء الدين للطباعة والنشر، دمشق، 1993، ص 62، ص 123-124

⁵ Ibid, pp. 1886-1887.

⁶ Ibid, p. 1887.

⁷ مدينة سورية قديمة يعود تاريخها إلى الألفية الثانية قبل الميلاد، وأعيد اكتشافها بمدينة **رأس شمر**ا عام 1929 من طرف فريق بحث فرنسي (اكتشف موقعها لأول مرة صدفة عام 1928). ورأس شمرا (ShamraRas) تقع بين جبل كاسيوس (Kassios) (يسمى حاليًا **جبل أكراد**) وميناء اللاذقية المعاصر. للتوسع انظر:

EncyclopédieFrançaise, 1ère édition, Librairie Larousse, 1975, vol. 15, p. 8927.

وانظر أيضاً: هنري. س عبودي، معجم الحضارات السامية، ط 1، جروس برس، 1408هـ/1988م، طرابلس، لبنان، ص 163-163 8 Encyclopédie des religions, pp. 1887-1888.



وبعيداً عن هذا العالم المظلم وجد عالم آخر مختلف، فمع أوزوريس (Osiris) ننتقل من عالم الظلمات إلى عالم النور والسعادة. فهو سيد الجنان، إذ ينعم الأموات في عالم فردوسي (-paradisiaque Un au). وتبرز الميثولوجيا المصرية أوزوريس إلها للعالم الأسفل حيث يرسل «بالمحسنين إلى النعيم وبالمفسدين إلى الجحيم» 10 ولا يأخذ أوزوريس صفات أريشكيجال، إذ كان أكثر الآلهة شهرة وشعبية خلال الألف الأول قبل الميلاد 11.

لكن ما الذي يجعل متخيلاً ما يتمثل عالماً فردوسياً، وآخر يتمثل عالم جحيم؟ هل من علاقة بين التمثلات الأخروية والواقع، بمعنى هل للكوارث الطبيعية وطبيعة الظروف المناخية وتعاقب الأنظمة السياسية التي تمرّ بها حضارة ما علاقة بتمثلاتها الأخروية؟

إنّ طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية والمناخية وغير ذلك على علاقة وثيقة بتصورات المجتمعات للأديان، وآية ذلك أنّ وجود الثلج والجليد في جحيم بعض الثقافات لا أثر له في جحيم المسلمين، وكيف يكون كذلك وبيئتهم الصحراوية لا تعرف إلا السموم والحمم وشدة الحرارة؛ وفضلاً عن ذلك للسياسة دور كبير في توجيه التصورات الدينية، فهزيمة قبيلة ما أو شعب ما كانت تؤدي قديمًا إلى أفول نجم آلهتها وعلو نجم آلهة القبيلة أو الشعب الغالب.

12 . العالم الآخر في تصورات سيبيريا وآسيا الوسطى 12

تعد صورة العالم الآخر لدى شعوب آسيا الشمالية معكوسة لعالم الدنيا؛ إذ يبدو العالمان على طرفي نقيض، فحينما يطلع النهار على الأرض، يخيم الليل على العالم الآخر، وصيف الأحياء يقابله شتاء الأموات. وكل ما يبدو منقلباً في عالم الأرض هو في وضع طبيعي لدى الأموات، لذلك كانت جماعات البلتير (Beltires) تضع أعنة الخيل وزجاجات الخمر في يد الميت اليسرى، لأنّها توافق اليد اليمنى في الأرض. وقد مكّن الإبحار الوجدي (extatique Voyage) للشامانيين (Leschamans) المعرفة طوبوغرافيا الجحيم في سيبيريا وآسيا الوسطى، ذلك أنّ الشاماني هو من يقود روح الميت نحو مثواها الأخير، وهو كذلك من ينزل إلى الجحيم في أحابين كثيرة، ليطلب لها الرحمة من سيد الأموات. ولا تخلو هذه الأسفار من مشاق وصعاب جمة، إذ يتم عادة الحديث عن العقبات التي لا تذلّل، مثل الحديث عن نهر جارف يقطع على الشاماني طريقه، ما يضطره إلى عبور صراط استحدّت واستدقّت، وهناك وحوش ضارية

9 Ibid. pp. 1889-1890.

¹⁰ فراس السواح، م.م، ص 389

¹¹ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

¹² EncyclopaediaUniversalis,« Enfers et paradis »,op.cit.

¹³ الشامانية (Le chamanisme) ديانة منتشرة في آسيا الوسطى، ينصرف أتباعها إلى عبادة الطبيعة والقوى الخفية. للتوسع انظر ما ذكره جواد على في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2، جامعة بغداد، 1413ه/1993م، ج 6، ص 46-45



تتهدده 14. وفي الواقع إنّ الحديث عن مثل هذا "الإبحار" لا ينسحب على آسيا الوسطى وسيبيريا فحسب، وإنّما طال كذلك أقيانوسيا وبعض القبائل الهندو أمريكية؛ وقد أسهم هذا في نشأة ميثيولوجيا الموت وفي ظهور أسفار ملحمية في التبت وآسيا الوسطى واليونان، ولمسنا صداها في الكوميديا الإلهية لدانتي (Dante).

3. العالم الآخر في التصورات الهندوإيرانية 15

إنّ عروج الروح إلى السماء والصراط التي تربط الأرض بالسماء، والكلبين اللذين يحرسان الصراط ومساءلة الروح، كل ذلك أشياء نصادفها في اعتقاد الهنود القدامى والإيرانيين على حد سواء؛ إنّها تعود الى زمن الوحدة الهندوإيرانية. وتحضر الصراط حضوراً مكثفاً في تصورات الإيرانيين، فعرضها تسعة رماح للصالحين وهي ضيقة على الفجار. وتمر الروح في عروجها بمراحل أربع، كما أشار إلى ذلك جاك دوشسنجالمان (Jacques Duchesne-Guillemin). المرحلة الأولى مرحلة النية الطيبة وتمثلها النجوم، والثانية الأقوال الحسنة ويمثلها القمر، والثالثة مرحلة الأفعال الحسنة وتمثلها الشمس. أما الفردوس الأعلى ويمثل المرحلة الرابعة فيثوي في عالم الأنوار اللامتناهي.

يقود الروح فوهي ماناه (ManahVohu) نحو عرش أهورا مازداه (MazdahAhura) المذهب، وتتغذى أرواح الأبرار من الأطعمة الطيبة في السماء، في حين تقدم لأرواح الأشرار في درجات الجحيم الأربع أنواع من الأطعمة الخبيثة. ويعتقد أتباع الأوبانيشاد (Upanishâd) في الهند أنّ الروح تتجه بعد الموت إما إلى الجحيم، ما يعني حلولاً مرذولاً في جسد حيوان، أو إلى القمر، ما يعني ولادة جديدة من نوع أرقى.

وفضاءات الجحيم متعددة كذلك صنوف العذاب، إذ تلتهم السباع المذنبين وتنهشهم الحيات، ويفنيهم الجوع والعطش، وتغلي أجسادهم في زيت شديد الحرارة، وغير ذلك من أنواع التنكيل. وكذلك الأمر بالنسبة إلى ضروب الثواب حيث وجدت العديد من الفراديس وقصور الذهب والمعادن النفيسة والجنان الفسيحة والموسيقي والراقصات والفتيات الحسان.

16 . العالم الآخر في التصورات البوذية 16

وصفت نصوص الماجيمانكايا (MajjhimaNikaya)، وهي مجموعة خطب بوذا، عذاب الجحيم وصفاً دقيقاً؛ ذلك أنّ المخطئ يوثق إلى عربات ثقيلة جداً، أو يجتاز سهو لا من نار، أو يجبر على إدخال

14 للتوسع انظر المرجع نفسه:

EncyclopaediaUniversalis, «Enfers et paradis», op.cit.

15 Ibid.

16 Ibid.



رأسه في مرجل شديد الغليان، أو يغرق في أنهار من نار. ثمة عدد كبير من فضاءات الجحيم يصل إلى حدود 256 جحيماً، ف "جهنم المرجل" تمتد على ستين فرسخاً ولا يبلغ قرار ها إلا بعد ثلاثين سنة، في حين يحترق في جحيم آخر المذنب 576 مليون سنة، ومع ذلك تعد فضاءات الجحيم عندهم ظرفية.

وجاء في نصوص الماهاياتا (Mahayana) أنّه ثمة ضروب ثمانية من جحيم باردة ومثلها من جحيم حارة، يحيط بكل صنف منها ست عشرة جحيمًا أقل حجماً؛ ومن بين الثماني الحارة واحدة تنزع فيها جلود المذنبين ويمزق لحمهم بملاقط من حديد، وثانية تدوس فيها فيلة من حديد الأجساد؛ وثالثة تدعى "الجحيم الحارقة" تستحيل فيها الأجساد إلى رماد. وتتجلد الأجسام في الجحيم الباردة، وتنفجر من شدة البرد. أما الجنان، شأنها شأن الجحيم، فظر فية و لا تمثل في الفكر البوذي البدائي غاية حتمية للمتدين.

ومثلما عنيت الماهاياتا بجغرافيا الجحيم، فقد عنيت كذلك بجغرافيا الفردوس، إذ قسّمت السماوات إلى مناطق رئيسة، ثلاث تحتوي كل منها على عدد من الفراديس السماوية. إنّ الست الأولى منها فوق عالم البشر تعد مقر الآلهة حيث سماء الثلاثة والثلاثين إلهًا وسماء تيزيتا (Ciel de Tusita) وغير هما؛ وأعلى هذا سماوات براهما (Brahma) الست عشرة يدخلها الذين مارسوا التأملات البوذية، وتتموضع بعد ذلك السماوات الأربع المتعالية حيث تمكث الروح في حالة انتشاء. ولن يبقى أعلى من هذا إلا بلوغ حالة النيرفاتا (Nirvana). إنّ تصوراً للفردوس كهذا عمّ كل المناطق التي انتشرت فيها نصوص الماهاياتا البوذية من تركستان إلى اليابان.

17 . العالم الآخر في التصورات الأورفية 17

يبدو من خلال نصوص الأوديسا (L'Odyssée) أنّ الأورفيين هم من حورّوا التصور التقليدي حول العالم الآخر. فهم يعتقدون أنّ المرء ينال في العالم الآخر جزاء ما قدّم في الدنيا من أعمال، وأنّ النفس الإنسانية حين تهوي إلى الجحيم تثاب لأعمالها الصالحة وتعاقب على أعمالها الطالحة. والفردوس الأور في عبارة عن منطقة جميلة في عالم ما تحت الأرض؛ إنّه مرج فسيح، تزركشه أز هار شذية وأشجار مثقلة بشتى أنواع الثمار حيث تستريح النفوس في نور خافت، تشارك في الرقص وتستمع إلى الموسيقى المقدسة، ثم تجلس إلى موائد فاخرة تحت أشجار وارفة الظلال. ومع نهاية العصور الوثنية وبتأثير من الثنوية الشرقية (Dualisme oriental) نهض تصور ثان، ذلك أنّ العالم الآخر لم يعد فضاء تحت الأرض، وإنّما صار

17 Ibid.

Encyclopédie française ,op.cit ,Vol ,14 .p.8884 .

الأورفية: مذهب ديني يوناني ظهر في القرن السادس ق. م. نسبة إلى أورفيوس (Orpheus)، ترتبط به مجموعة من طقوس وشعائر دينية وعرفانية. وهو شاعر غناء وعاشق، فجع في زوجته هوريديس (Heurydice) التي ماتت بلدغة ثعبان. وقصت أسطورة يونانية خبر نزوله إلى العالم الأسفل كي يستعيد حبيبته إلى الحياة. وتعبر الأساطير التي تحدثت عن نزول العديد من الأبطال إلى العالم الأسفل وعودتهم أحياء عن رغبة الإنسان الدفينة في الانتصار على الموت، لهذا تعتبر الأورفية أساساً ديانة خلاص، وللتوسع انظر:



يفصل بين فضاء الجحيم وفضاء الفردوس، فالجحيم ثاوية في ظلمة العالم السفلي في حين تموضع الفردوس في أنوار السماوات الخالدة.

18 . العالم الآخر في الأديان التوحيدية

للعبرانيين عالمهم الأسفل الذي أطلقوا عليه اسم شيئول (Shéol) وقد ساروا على نسق التصورات السومرية والبابلية في تصوراتهم الأخروية 19. وقتة عدن هي الفردوس الوحيد الذي ذكره العهد القديم، قد وردت في سفر التكوين 20، وهي جنات عدن التي سيذكرها القرآن لاحقًا.

أما المسيحية فقد قبلت بعد تردد طويل التصور الثنائي للعالم الآخر، مثلما يتجلى ذلك في أسفار الرؤيا المنحولة (Les apocalypses apocryphes). كان سفر بيار في القرن الثاني الميلادي أول نص مسيحي تحدث عن عقاب المذنبين في الجحيم، إذ يكونون طعاماً لطيور كاسرة، أو يعلقون من ألسنتهم فوق نار عظيمة، أو يوثقون إلى عجلات طاحنة. وبعد قرنين من الزمان أعاد سفر بولس التصور ذاته وطوره، إذ يشير النص إلى ضروب من الدود الضخام، لكل واحدة رأسان تلتهم أجساد المذنبين، إضافة إلى سكاكين حادة احمرت إلى درجة البياض، وهوة ساحقة تهوي إليها أجساد المغضوب عليهم، وغير ذلك من أنواع العذاب.

ويصور سفر بيار الفردوس فضاءً خارجاً عن حدود هذا العالم، تغمره الأنوار من شتى أقطاره. أما صورة الفردوس في سفر بولس فهي أشبه بصورة أورشليم الخالدة: المدينة منحوتة من الذهب الخالص، تخترقها أنهار أربعة: أولها من عسل، وثائيها من لبن، وثالثها من خمر، ورابعها من زيت؛ وعلى ضفاف الأنهار تنمو أشجار وارفة الظلال غزيرة الثمار وتغمر المكان أنوار شديدة البريق. وجاء في الفكر المسيحي أنّ المسيح قاهر الجحيم إذ يكسر أبواب جهنم ويحرر الموتى ويفتح بوابة السماء أمام البشرية، وبمجرد نزوله إلى الأرض يغمر كل شيء بنوره 21.

Encyclopaedia Universalis, «Enfers et paradis», op.cit. Encyclopédie des religions, op.cit, pp. 1888-1893.

www.mominoun.com 9

¹⁸ باستثناء الإسلام لأننا سنفرد له عنصراً خاصاً في هذا الفصل ولأنه سيكون مدار عملنا.

¹⁹ انظر فراس السواح، م.م، ص 381

²⁰ انظر هشام جعيط، م.م، ص 169

²¹ للتوسع في مبحث العالم الآخر وفق التصورات المسيحية انظر:



7. العالم الآخر في التصور الإسلامي

كيف هو العالم الآخر في التصور الإسلامي؟

يستدعي هذا السؤال أولاً الإجابة عن سؤال آخر: هل كان عرب قريش قبل الإسلام يعتقدون بوجود حياة تلي الموت²²? ليس هناك أفضل من القرآن كي يمدنا بمعلومات مهمة عن طبيعة الحياة الدينية قبل مجيء الإسلام، ثم نبحث بعد ذلك في التصورات الجديدة التي تأتي على أنقاض التصورات السابقة.

لم يكن عرب قريش قبل الإسلام يعتقدون بوجود حياة ثانية، فقوم محمد أو الكافرون كما يصفهم القرآن يرددون دائماً بإنكار شديد: أنّى للمرء وقد مزق كل ممزق أن يصبح في خلق جديد23؟

يقوم النظام الديني لعرب قريش على الوثنية، هم يؤمنون بتعدد الآلهة، ولكن أن يصل الأمر إلى الاعتقاد بوجود حياة ثانية تلي الموت فإنّ ذلك لم يشغل تفكير هم، فالدهر الذي أهلك آباءهم الأولين سيهلكهم أيضاً إنّ رفض الكفار للدعوة الجديدة يعني أنّ لهم نظاماً خاصاً من التصور والإدراك ورؤية خاصة للعالم وفق ما ورثوه عن آبائهم، كان ذلك النظام يمثل حقيقتهم، ويعني قبولهم دعوة جديدة إلى وضع نظام جديد من التصور ومن العلامات والرموز، لهذا كان القرآن بعيداً "عن الاهتمامات الدينية القرشية فكان من الصعب على القرشيين أن يفهموه ويتذوقوا أبعاده الميتافيزيقية والعالمية" 24.

إنّ النفي المطلق للبعث والأحداث التي تليه، يقابله دحض القرآن لتصورات الكفار، فبقدر ما نجد آيات وصفت موقف الكافرين، كان القرآن حريصاً بالمقابل على إبراز معالم حياة ثانية، تتجلى بوادرها بدءاً من الكارثة الكوسمية المتعلقة بنهاية العالم، ثم البعث والنشور، وختاماً بالحديث عن الفردوس والجحيم، ولا تكاد سورة من سور القرآن، وبخاصة المكية، تمر من دون أن تذكر ذلك. وموقف الكفار غير بعيد عن موقف الأقوام البائدة أو القرون الأولى التي دمرها الله لأنها لم تؤمن به ولا باليوم الآخر. ولعل أهم ما يستوقفنا عند الحديث عن تلك الأقوام هو مفهوم الفردوس الأرضي الذي هو من خلق الإنسان؛ لقد ذكر القرآن في غير ما آية أنّ مآل الفردوس البشري الاندثار 25، على الرغم من أنّ الفراديس المدمرة تبرز في وجهها الآخر قوة

²² تجدر الإشارة هنا وكي لا يكون كلامنا مطلقا وعاماً، إلى أنّ دين العرب قبل الإسلام مثل أحد المباحث الشائكة والمختلف فيها بين باحثين عرب ومستشرقين، ومن الأفكار السائدة أنّ العرب كانوا على قدر كبير من الانحطاط الديني قبل الإسلام حيث لا يتجاوز تفكير هم تفكير القبائل البدائية (انظر مثلاً جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مم، ج 6، ص 30)، لكن هذا القول لا ينفي وجود عرب يهود ونصارى وموحدين و هم الحنفاء، إضافة إلى ذلك «كان منهم من آمن بالله وتعبد للأصنام إذ زعموا أنها تقربهم إليه، وكان منهم من تعبد للأصنام زاعمين أنها تنفع وتضر [...] ومنهم من آمن بتحكم الآلهة في الإنسان في هذه الحياة، وببطلان كل شيء بعد الموت فلا حساب ولا نشر ولا كتاب» (المرجع نفسه، ص 34). ومعرفة دين العرب قبل الإسلام مهمة كي نفهم عقلية الناس الذين خصّهم القرآن بخطابه وكي نفهم أيضاً طبيعة هذا الخطاب نفسه. (المرجع نفسه انظر الجزء 6 من المفصل إذ خصصه جواد علي لدراسة دين العرب قبل الإسلام).

^{23 (}وقالَ الذِينَ كَفَرُوا هِلْ نَذَلُكُمْ عَلَى رَجُلِ يُنَبِئُكُمْ إِذَا مُرَّقَتُمْ كُلَّ مُمْزَق إِنَّكُمْ لِفِي خَلق جَدِيدٍ) سبأ 7/34. وانظر أيضاً: الأنعام 29/6، الرعد 5/13، النمل 67/27، السجدة 10/32، الصافات 10/37-14، الواقعة 47/56، 48

²⁴ هشام جعيط، م.م، ص 165

²⁵ انظر مثلاً: الكهف 32/18-42، سبأ 15/34-16، القلم 17/68-20



الفعل والخلق البشريين، وتبرز أنّ أنسنة الفردوس خلق جرىء ينافس الخلق الإلهي، إذ هو يقطع كلياً مع السماء ويكتفي بالأرض، فيتحرر بذلك مفهوم الفردوس من المعنى الماورائي ومن علاقته بالمقدس.

يثير مفهوم الفردوس الإسلامي أكثر من سؤال. ويفترض البحث في هذا المفهوم الحديث عن الفردوس الأنموذج الأقدمي (Archétype). وفردوس آدم وحواء كما جاء في القرآن هو فردوس إلهي، وهو أيضاً فردوس مفقود، لا نعلم إذا كان سماوياً أم أرضياً في ظل اختلافات المفسرين، ولا نعلم أيضاً إن كان المسلم و هو يحلم بفردوسه المنتظر سيعود إليه باعتباره المفقود أم هناك فردوس آخر؟ و هل هو مخلوق أم لا؟ وكيف نسلم بهذا الفردوس الإسلامي في ظل وجود نماذج أقدمية سابقة له؟ والسؤال الأخير يدفعنا بدوره إلى التساؤل: ما الذي يجعل الفكر البشري يولع بتصورات الفردوس وينشدّ إليها؟ وإلى أي حد يمكن التسليم أنّ البداية البشرية كانت فردوسية الطابع؟

يمكن القول إنّ التفكير في الفر دوس يستثير في الإنسان حنيناً إلى البدايات، إلى العود الأبدي (L'éternel retour) الفردوسي. قد يكون ذلك رغبة لاواعية في الإنسان للعودة إلى الفضاء الجنيني، إلى الرحم الأمومي، فضاء السكينة والحميمية والراحة الأبدية، وعليه فإنّ عالم الفردوس هو أجمل ما ابتدعته مخيلة الإنسان تعويضاً (Compensation) عن تلك الرغبة الدفينة. لكن هذا القول قد يحبط الذات الإنسانية التي تجتهد لخلق صورة عالم تمنحها إحساسا أنَّها تموت لتحيا حياة جديدة.

لقد وجدت رواية قصّت خبر آدم وحواء والحية، لها جذور أسطورية سابقة للرواية التوراتية 26، وهي التي أثرت بشكل جذري في التصورات الإسلامية. فكيف نبرر مثلاً التشابه الكبير بين الختم السومري المثقل برموزه، إذ وجدت شجرة تدلت منها ثمارها وعن يمينها وشمالها هناك امرأة ورجل في وضع قطف الثمار ووراء المرأة انتصبت الحية في وضع الهامس للمرأة، وبين ما ورد في التوراة؟ أفلا يقص هذا العمل الفني خبر خطيئة الإنسان قبل ألفي عام من قيام مؤلفي التوراة بتدوينها 27؟

وفضلاً عن ذلك وجدت أساطير تروى أنّ تلك البداية كانت فردوسية الطابع على غرار أسطورة دلمون²⁸، إلا أنّ هذا القول لا يمكن الاطمئنان إليه في ظل وجود أساطير أخرى قصت للبشرية أنّ الغاية من خلق الإنسان الأول كانت خدمة الآلهة و عبادتها، على النحو الذي نجده مثلا في **ملحمة الخليقة البابلية**

²⁶ في عام 1872 أعلن الأثاري ج. سميث وهو أحد المختصين الأوائل في الدراسات الأشورية أنّ التوراة فقدت نهائياً صفتها التي كانت عليها، إذ هي صياغة معدلة من ملحمة جلجامش (Gilgamesh) (والعبارة لجان بوتيرو (Jean Bottéro) وهو مختص في الدر اسات التاريخية الأشورية وله العديد من المؤلفات حول ميثولوجيا بلاد ما بين النهرين) بعد أن فكت رموز الكتابة المسمارية للرقم المكتشفة عن طريق الحفريات، إذ تم اكتشاف تاريخ مشابه، حتى في التفاصيل، لرواية الطوفان التوراتية لكنه أسبق منها زمنياً، فأدرجت التوراة بذلك ضمن سلسلة الأداب العالمية. انظر جان بوتيرو، ولادة إله التوراة والتاريخ، تعريب جهاد الهواش وعبد الهادي عباس، ط 1، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، 1999، ص 17-18

²⁷ انظر فراس السواح، م.م، ص 115، وانظر الرسم عدد 38 في الصفحة نفسها.

²⁸ تعتبر من أقدم النصوص الأدبية السومرية التي ذكرت الفردوس وقد ظهرت قبل التوراة بزمن طويل، و"دلمون" هي أرض الخلود حيث تصور الإنسان عالمًا ينعدم فيه أي خطر من شأنه أن يهدد الإنسان. لكن الفكر الذي صاغ هذا الفردوس يمثل مرحلة متطورة من الوعي البشري، لأنّ تقديمه لعالمه على هذا النحو يفترض وجود تجربة معيشة شعر خلالها بوجود حالات تناقضها، تشعر الإنسان بالخوف من الموت.



باعتبارها أكمل قصة تتمحور حول الخليقة وأصل الوجود، وفي ملحمة أتراحاسيس (أي الكثير الحكمة). فوفق هاتين الأسطورتين يمكن أن نستنتج أنّ قدر الإنسان كان منذ البداية الكدح، فكيف نسلم بالبداية الفردوسية إذن؟

وكيف يمكن تأويل مسألة إخراج آدم وزوجه من فردوسه: هل هو لعنة إلهية أم انتقال من حالة إلى حالة أخرى، انتقال من المقدس إلى الدنيوي ومن الثبات إلى الحركة؟ كيف يمكننا أن نتعامل مع تصور الأكل من الشجرة المحرمة: هل هو تمرد بشري على ما هو إلهي والخروج عن المسار المحدد له؟ وإذا كان خروج آدم من فردوسه هو بسبب أكله من الشجرة المحرمة، فهل يعنى هذا أنّه لو لم يأكل من تلك الشجرة كان سيخلّد؟ وكيف يستقيم الأمر والحال أنّ خلق آدم، كما نعلم، كان لحكمة إلهية، جو هر ها أن يكون الإنسان خليفة الله في الأرض فيعمر ها حتى يعرف الشكور من الجحود؟

إنّ ما يمكن تأكيده في هذا الإطار أنّ آدم لو أطاع ربه لما انفصل الإنسان عن طابع الحيوانية، ولما استطاع أن يميز بين المباح والممنوع، وبين الخير والشر، لأنّه بتلك التجربة اكتسب الإنسان صفة الإنسانية، واستطاع أن يعمر الأرض ويكون خليفة فيها. وفضلاً عن ذلك تقدم لنا قصة آدم وزوجه، رمزيّاً، تفسيراً لحقيقة الموت، فلو خلّد آدم لما وجد الموت²⁹.

عموماً لم يكن للمصنفات الإسلامية الكلاسيكية حديث حول العالم الأسفل على غرار الميثولوجيات القديمة، ومع ذلك يمكن القول إنّ عالم القبر هو شكل من أشكال "العالم الأسفل"، إن جاز التعبير، إذ هو البوابة الأولى التي تنفتح على العالم الأخروي. فرحلة الميت إلى هذا العالم تبدأ ما أن يوارى ترابه وهي رحلة شاقة ومضنية وطويلة، ولا نبالغ إذا قانا إنّ أريشكيجال أو كور أو بيرسفوني أو هاديس يعوضون في التصور الإسلامي بمنكر ونكير 30.

وعلى الرغم من أنّ التفاصيل تروى بطابع إسلامي، فإنّها تسير في المسار نفسه الذي سارت على دربه معظم الأساطير، إذ يشترك جميع أسياد العالم السفلي في الصفات الفيزيولوجية المخيفة، وإن تلونت، وفي أنواع العذاب العديدة والأدوات المعدة لذلك، وفي حيوانات ذلك العالم التي تعمق الرعب وإن اختلفت أشكالها. وحتى "العالم السفلي" الإسلامي الذي تتخطف فيه الملائكة الأرواح الشقية، والذي يقابله انفتاح السماوات على الفردوس وملذاته التي تنعم بها الأرواح الطيبة، عبرت عنه تصورات أعرق من التصورات الإسلامية تاريخياً.

²⁹ للتوسع في هذه المسألة انظر مثلاً ما قاله محمد الطالبي في كتابه: ليطمئن قلبي، سيراس للنشر، تونس، 2007. وتحديداً: "الإسلام وزينة الحياة الدنيا" وكذلك: "الشجرة في القرآن شجرة الانفصال عن الحيوانية وظهور الإنسان المتميز بالضمير والحرية".

³⁰ يكفي هنا أن نشير إلى الكم المهم من الأخبار المتعلقة بعذاب القبر التي تناولت بالتأويل الآية 27 من سورة إبراهيم، (انظر مثلاً تفسير ابن كثير)، وأيضاً كثرة الكتب التي تروي أهواله على غرار: عذاب القبر لأبي بكر أحمد البيهقي، سؤال القبر لزين الدين بن عبد العزيز المعبري، رسالة في سؤال القبر لأحمد بن مبارك السجلماسي، وكتاب سكرات الموت وشدته وحياة القبور حتى النفخ في الصور لأبي حامد الغزالي.



لقد رمنا بهذا التمشي مقاربة أخرويات عديدة، وإن كان يستحيل الإحاطة بجميعها، فما ذكرناه غيض من فيض كثير، وكانت رحلة في ميثولوجيات متنوعة وديانات كثيرة أردنا بذلك من ناحية أولى تأكيد أن تمثل العالم الآخر كان همّاً إنسانيّاً وما الفردوس سوى نجاة أخروية من حتمية الموت، نجاة من الفناء، ومحاولة تأكيد أنّ الجسد لن يبلى وكذلك الرغبة في بعثه في عالم آخر، والرغبة في أن ينعم بكل الملذات بما أنّ الموت أعظم خطر يهدد الإنسان ويصيبه بالفزع والذعر حتى لدى أولئك الذين يرددون عبارات "كل من عليها فانٍ" وأنّ الموت حق والجنة حق والنار حق³¹. ورمنا من ناحية ثانية إبراز مدى تلون المتخيل وقدرته على خلق صور لا حد لها، مركزها الإنسان ومصيره. وأكدنا من ناحية ثائثة أنّ فهم تصورات المسلمين لفردوسهم وجحيمهم يستوجب الرجوع إلى الوراء، إلى زمن موغل في القدم، والاستعانة بتصورات أخرى، فالبعد المقارني مهم، لعلنا بذلك نقف على خصائص تسم المتخيل الإسلامي وتفرده.

وصفوة القول إنّ هذا الفصل وإن توفر على كم تاريخي من المعلومات التي طغى عليها الجانب السردي، فإنّ ذلك قد اقتضاه منهج بحثنا. وسنعمل على تعميق الأفكار والدلالات فيما سيأتي من فصول.

إذاً كيف صور لنا المتخيل الإسلامي بعض ملامح العالم الآخر في بعديه الفردوسي والجحيمي؟ وهل يمكن أن نرصد تطوراً في نشاط المتخيل بين المصدرين، وقدرة على خلق صور جديدة، بخلاف تلك المستهلكة قديماً باعتبار الفارق الزمني بينهما؟

31 إبراهيم محمود، جغرافية الملذات - الجنس في الجنة، م.م، ص 38



لائحة المراجع:

- بوتيرو (جان)، ولادة إله، تعريب جهاد الهواش وعبد الهادي عباس، طبعة 1، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، 1999
 - جعيط (هشام)، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، طبعة 1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2007
- السواح (فراس)، لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، طبعة 5، دار علاء الدين للطباعة والنشر، دمشق، 1993
 - الطالبي (محمد)، ليطمئن قلبي، سيراس للنشر، تونس، 2007
 - على (جواد)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، طبعة 2، جامعة بغداد، 1413هـ/1993م.
 - محمود (إبراهيم)، جغرافية الملذات، الجنس في الجنة، طبعة 2، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 1998
- Encyclopédia Universalis, «Enfers et paradis» par Mircea ELIADE et Olivier CLEMENT, CD ROM, 2007.
- Encyclopédia Universalis, France, 1990, Françoise Armengaud, «Les animaux dans les religions».
- Encyclopédie Française, Librairie Larousse, France, 1^{ere} édition, 1975.
- Encyclopédie des religions, «Les dieux du royaume des morts, La mort et l'au-delà, Bernhard Lang», Bayard, 2^{ème} édition, 1997.

MominounWithoutBorders

Mominoun You

@ Mominoun_sm

مهم المسلم المس

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الماتف : 44 99 77 737 212 +212

الفاكس : 21 88 77 73 537 +212

info@mominoun.com

www.mominoun.com